أنتَ لقلبي حياة

فاتن عبد الرؤف عبد المتجلى – مصر

كعطرٍ مخنوق داخل زجاجتِه؛ إذا فُتح عنه الغطاء تمدّدَ في الهواء!

لا يدري ماذا يفعل؛ أيتركُه محبوسًا ويكون في نظره خائن، أم يطلق سراحه ويكون في نظره قاتل؟!

كانت تلك حالتَه، فمنذ أن رآها فى إحدى المحاضرات، انتابه هذا الشعور، شعور قاتلٌ بأنه سَيتسَبّب دون قصد في فتح جرحٍ لها لا يلتئم أبدًا.

فقد كانت فتاةً وحيدةً صامتةً، تجلس دائمًا على أريكة في حديقة الجامعة، كان يراها يوميًّا ولا يجرؤ على الاقتراب منها، وفي نفس الوقت لا يدري ما الذي يجذبه إليها؟!

ربما الذي يجذبُه إليها بساطةُ جمالِها؛ فهو يرى كلَّ يوم الكثير من الجمال المصطنَع بأدواتِ التجميل والملابس المبالغِ في زينتها، لكن كان في جمالها شيءٌ من البساطة والوقار، شيءٌ مهما حاول وصفَه؛ ستخونه الكلمات، وهذا الشيء كان ساحرًا؛ فهيَ تُشبه أميرات العصور الوسطى؛ ذاتُ بشرةٍ خمريَّة اللون يَشُوبُها شيءٌ من الحمرة، وشعر طويل، وعيون سوداء، تغطى جسدها دائما بثوبٍ أسودَ اللون وكأنّها أعنلتْ الحداد على شيء مات بداخلها!

لكن ما كان يُقلقُه دائمًا هو صمتُها المبالغ فيه؛ فهو منذ فترةٍ يراقبُها؛ ولم يرها مطلقًا تتحدَّثُ مع أحدٍ، بالرغم من أنّ هذا الصمت جعل حولَها هالة من الهيبة والشموخ إلا أنّه كان يقتُلُهُ؛ فهو يريد أن يتقرب منها ويتحدث إليها ويسمع صوتَها، لطالما اشتاق إلى سماع صوتها، لطالما أراد أن يقول لها أنَّه حقًّا يُحبُّها، إنه لم يكن يؤمن يومًا أنّ هناك شيئًا يُسمَّى (الحبّ من أوّل نظرة) ولكنّه ها هو يقع أسيرًا في شباك حبّها.

لطالما أراد اختراق هذا الحزن الذي يغزو عيونها الجميلة، لطالما أراد أن يُغازلَها قائلًا: "كيف لهذه العيون الجميلة أن تكون بكل هذا الحزن؟! كيف لهذه العيون التي من المنتظر أن تعانقَ الحياة بكبرياءٍ وغرور؟"

ها هي ترمق الحياة بنظرةِ حزنٍ وعتاب، وكأنَّهُ يوجد بينها وبين الحياة ثأرٌ قديم أو انتقام دفين!!

ولكونه أستاذًا جامعيًّا؛ منعَه منصبُه من هذا كلِّه، فكيف يقول هذا الكلام لطالبة لديه؟!

ظلّ طوال أيام شريدَ الذهن معذَّبَ الفؤادِ، لا يستطيع أن يتحدّثَ معها ولا يستطيع أن يتجاهلها، حتى إنه شَعُرَ أنَّ طلابَه لاحظوا هذا التغيّر الذي طرأ عليه... حقًّا الحبُّ مثل الموت يأتي على حين بغتةٍ يَسلبُنا أرواحَنا ولا يقدّم لنا أعذارًا...

لكنّه اليوم بعد نهاية المحاضرة، سَمِعَ بعضَ الفتيات يتهامَسْنَ فيما بينهن ويُشِرْنَ إليها وَهُنَّ يقُلنَ: "مسكينةٌ هذه الفتاة لا تستحق كل ما حدثَ لها؛ لم تكن الحياة عادلة معها!".

أخذَ يُحَدِّثُ نفسهُ في حيرةٍ ويقول: "يا إلهي ما الذي حدث معها؟! وماذا فعلت بها الحياة؟!"

هو حقًّا يراها حزينةً صامتةً طوال الوقت ولكنه اعتقد أنها فقدت عزيزًا عليها، وهو الآن شعر أنّ وراء هذه العيون الحزينة سرًّا كبيرًا وألمًا عميقًا، ولابد أن يعرفه؛ لذلك ذهب مسرعًا في اتجاه الفتيات وعندما بدأ يقترب منهن توقف فجأةً وتمالك نفسه!

أخذ يحدِّثُ نفسه في ضجرٍ قائلًا: "تبًّا لهذا المنصب! ليتني إنسانًا عاديًّا أو درويشًا للحب وقتها كان من الممكن أن أقتربَ منها".

بعد سماعه للفتيات، أخذ يفكّر في حيلة لكي يعرف ماذا حدث لها؛ فلا مَفَرَّ من ذلك، وبعد الكثير من التفكير وجدَ طريقةً لعلّها تجدي نفعًا ويبلغ مراده؛ حيث إنّه طلب من جميع الطلاب أن يكتبوا إحدى التجارب المؤلمة التي تعرّضوا لها في حياتهم دون كتابة أسمائهم.

كانت هذه الحيلة منطقيةً ولن يشك أحد فيها؛ حيث إنّه كان يدرّسهم مادة علم الاجتماع.

أخذ يحدِّث نفسه ساخرًا: "حسنا ليس منصبي بكل هذا السوء!".

ظَلَّ يراقبُها في نفاذِ صبرٍ وقلقٍ وهي تمسكُ بالقلم بيدٍ مرتعشةٍ وتنظرُ للورقة كمن ينظر لمشهدٍ مُرْعِبٍ! لعله بهذا الطلب فتحَ في قلبِها جرحًا ما يزال حديثَ العهد، ثم تمالكت نفسَها وأخذت تكتبُ وتكتب كمن أتيحتْ له الفرصة ليزيحَ جبلًا من الهموم عن كاهله إلى أن انتهت من الكتابة.

بعدما جمع كل أوراقِ الطلبة؛ ذهب إلى مكتبه مسرعًا واخذ يفتّش فى جميع الأوراق إلى أن وجد ورقتَها حيث إنَّهُ يعرف خطَّها؛ انتابه شعورٌ غريب، أخذ قلبَه يدقّ بسرعةٍ ويده ترتعش وكأنه يدرك كم الألمِ التي تعرضت له!

كان مكتوبا في ورقتها: "كفتاةٍ صغيرةٍ كانت كلّ أحلامها تقتصرُ على عروسةٍ تلعب بها مع أصدقائها ولكنّها لا تدري أنّ هناك من يقرّرُ مصيرها؛ فأوان مصيرِها قد حُدِّدَ منذ ولادتها..فبعد انتهاء الثانوية العامة أردتُ مثل جميع الفتيات دخول الجامعة ولكنَّ أحدهم قرَّرَ أنه يكفيني التعليم السابق ولا بُدّ من زواجي الآن، وبعد الكثير من البكاء والرفض؛ تقرَّرَ ذلك وكأنَّهُ أمرٌ منزل من السماء لا رجعة فيه!

وما زاد من مأساتي أن زوجي كان رجلًا مجنونًا عديمَ القلب والدين لا يرى سوى جسدٍ بلا روح، كان كل ليلةٍ يتحوّل إلى شيطانٍ ذي قرونٍ ينهش في جسدي بلا رحمةٍ، كنسرٍ جارحٍ ينقضُّ على جثةٍ ملقاةٍ؛ فقد قتَل بداخلي كل رغبة في الحياة!

ولكنني تحمَّلت كل هذا صامتةً، حدث معي ما لا يتحملُه عقل بشري!!

فهذا الشيطان لم يكن قطُّ زوجًا بل كان قَوَّادًا يتاجرُ بجسدي ليكون عرضة لكلاب الشوارع من السُّكارى والمدمنين!

أحقًّا هذا رجل؟! أيُعقل أن يفعل زوج هذا بزوجته؟!

فقد حوَّلَ حياتي لجحيم؛ فهذا المدعو زوجي كان يضع في غرفةِ النوم كاميرا يُصوِّرُ بها كلَّ ما يحدث بيننا؛ ثم يأخذ هذه الفديوهات ويبيعها لأصدقائِه نظير المال أو المخدِّرات..أخذ جسدي يرتعش وأنا أراه يفعل ذلك، لا أدري ماذا أفعل؟! فقد حَوَّلَني من فتاةٍ لا تبلغُ من العمرِ سوى تسعة عشر ربيعًا إلى عاهرة..انتابني شعورٌ قاتلٌ كفتاةٍ جَرَّدَها أحدهم من ثيابها وسط حشودٍ من الناس.

بدأت في الصُّراخ والبكاء، وتحطيم كلّ شيءٍ؛ فدخل عليَّ وأخذ يضرب فيَّ ويقول لي: "ماذا تفعلين؟". وعندما واجهتُه بالذي عرفتُه؛ استمرَّ في ضربي وهو يقول لي: "أنتِ وجسدك وقَدْرُكِ ملكي أفعلُ بهم ما أريد"!

وبعد مشاجرةٍ وضربٍ مبرحٍ؛ كدت أن أموت في هذه الليلة إلى أن أمسكتُ بزجاجةٍ وضربتُه بها فوقَ رأسه؛ فأرديتُه قتيلًا فَحَوَّلَني بذلك إلى قاتلة!

لكن لحسن حظي أن الكاميرا التي وضعها في غرفة النوم صَوَّرتْ كل ما حدث بيننا؛ فتحولت القضية من جريمة قتلٍ إلى دفاعٍ عن النفس وَتَمَّتْ تبرئتي من تهمة القتل...

فكنتُ يا سيدي مثل شخصٍ وقع من الدورِ العاشر لكن لحسن حظِّه أنَّهُ كان يوجدُ فى الدور الخامس سترةُ نجاةٍ معلقةٌ ثم أخذ الناس من فوقه وتحته يتعجبون ويقولون: "يا لحظ هذا الشخص؛ فلقد نجا بأعجوبة ولكن عندما ذهب رجال الإسعاف ليُنزلوه؛ وجدوه ميْتًا إثر سكتةٍ قلبيّةٍ!!

فقد نجوتُ من الإعدام ولكنّني لم أَنْجُ من كلام الناس.

فبعث بي أهلي لأعيش مع عمَّتي وأُكمل تعليمي؛ رُبَّما أجدُ فيه الملجأ والملاذ!!

سَرَتْ في جسده رعشةٌ وهو يقرأ كلامَها كسريانِ السّم البطيء في الجسد!

أخذ يحدِّثُ نفسه في حُنْقٍ وكأن ألمًا يعتصر قلبَه: "ما هذا الظلم الذي تعرضت له فتاة في مثل سنها؟! يا لقساوة الحياة معها!".

بعدما عرف قصتَها؛ ازداد حبُّه لها وعزم على شيء هو أنه إن كان مقدرًا له الزواج؛ سيكون منها هي فقط!

فذهب إليها في نفس المكان التي تجلس فيه دائمًا، وعندما رَأَتْهُ؛ وقفت مذعورةً وقالت: "ماذا حدث يا سيدي؟!"

فأجابها باسِمًا: "هل تتزوجينني؟"

نظرت إليه في دهشةٍ وقالت بصوتٍ مُتَلَعْثِمٍ: "أتزوجك أنتَ، أقصد: حضرتك؟".

قال لها: "نعم، أنا"!

فقالت له بصوتٍ حزين: "عذرًا يا سيدي؛ فأنا لا أريدُ الزواج!".

فقال لها: "ولكنني أحبُّك!".

فقالت له: "أنت لا تعرف شيئًا عني؛ ابتعد عني يا سيدي فأنا لعنةٌ أخافُ أن تصيبَك!".

فقال لها: "بل أعرف كلَّ شيء. قبل أن أعرفَ كنت أحبك، وبعدما عرفت عشقتك وزاد احترامي لك، فلا تعاقبي نفسَك على ذنبٍ لم تقترفيه، ولا تعاقبيني على ذنبٍ لم أقترفه، أعطِ الحياة فرصة لمصالحتك!".

شعرت بالارتياح لكلامه، وأحسَّتْ أنَّ الحياةَ علمت كَمَّ الظلم الذي أوقعتْه عليها، وأن (الله) –سبحانه- يريد تعويضها، وأنّ السعادة تنازلتْ عن كبريائها وَدَقَّتْ بابَها؛ فوافقت على طلبه عساه أن يكون مكافأةً من (الله الكريم) لها!

obeikandl.com